المشرق
مجلة

السنة الحادية والاربعون

تشرين الاول – كانون الاول ١٩٦٧

ازياء الاحكام

وما كانت تصلح له في الملابس العربية

بقلم حبيب زيات

في كتاب المدخل لابن الحاج من الفقهاء المالكية آراء واحكام انكر في بعضها كثيراً مما كان جارياً في زمانه من العادات والمصطلحات والبدع. وهي اذا تأملها الباحث المتطلع الى معرفة احوال المتقدمين واوصاف معيشتهم في الحضارة الاسلامية لا تخلو من طُرَف ولُقَط قلّ ان توجد نظائر لها في كتب الاخبار والادب والتاريخ. ومما توسع بذكره من البدع المنهي عنها طول الاكمام واتساعها الخارق قال: « ألا ترى الى ما ورد عن عمر بن الخطاب (رضه) حين لبس ثوباً فوجد كمّه يزيد على اطراف اصابعه فطلب شيئاً يقطعه به فلم يجد فاخذ حجراً والقى كمه عليه ثم اخذ حجراً آخر فجعل يرضه به حتى قطع ما فضل من اصابعه ثم تركه كذلك مدلى حتى خرجت الخيوط منه

وتدلّت فقيل له في خياطته. فقال رأيت رسول الله (صلعم) فعل بثوب كذلك ولم يَخِطْهُ بعد حتى تقطع الثوب.»[1]

ولا ندري هل كانت الاكمام قبل الهجرة بين البدو وفي ديار العرب مفرطة الطول وقد فاتنا علم معظم ما يتعلق بالملابس العربية واوصافها منذ الفتح. ولا شك انه طرأ عليها تدريجاً بمخالطة الاعاجم من اهل البلاد والروم والفرس كثير من التبديل والتعديل، ولكن لا سبيل ان نعرف متى بدأت هذه الاكمام بالطول والاتساع، ولم يرد في ما بين ايدينا من الاسفار القليلة الباقية اشارة اليها قبل العصر العباسي، وذهب المسعودي الى ان المستعين بالله هو اول من «احدث لبس الاكمام الواسعة ولم يكن يُعهد ذلك فجعل عرضها ثلاثة اشبار ونحو ذلك وصغّر القلانس وكانت قبل ذلك طوالاً كاقباع القضاة[2]. وقد فاته ان يحكي لنا طول هذه الاكمام، ولا محالة انه زاد ايضاً لاعتقاد القوم في تلك الاعصار ان الزيادة في الطول والعرض ادعى الى الهيبة والتعظيم. ولذلك امر المنصور بتطويل القلانس في خلافته فكانت تُدعم بعيدان من داخلها حتى قيل فيها:

تراها على هام الرجال كأنها ... دنان يهود جُلِّلت بالبرانس[3]

وبلغ من اتساع الاكمام وطولها على التوالي انه لما ملك اليمن بعد ابيه المعزّ اسمعيل بن سيف الاسلام ظهير الدين بن نجم الدين بن ايوب «لبس ثياب الخلافة وعمل طول كل كم خمسة وعشرين شبراً في سعة ستة اشبار»[4] وهو ما لا يكاد يصدَّق لغرابته. ويظهر ان سعة الاكمام وطولها كانا يختلفان باختلاف الطبقات والمراتب فكان العلماء والقضاة واهل القرآن يؤثرون الازدياد منهما حبًّا بالتهويل والتعظيم. ولما سأل الناس يواسط علي بن محمد بن دينار بعد موت ابي محمد عبدالله العلوي «ان يجلس لهم صدراً فيُقرئهم امتنع وقال:

---

١) كتاب المدخل ١ : ١٠٦

٢) مروج الذهب، بهامش الكامل، ٩ : ٢١٤ – ٢١٥

٣) الاغاني، طبعة بولاق، ٩ : ١٣١

٤) الاول من السلوك للمقريزي، خزانة باريس ١٧٢٦، ص ٥٣

انا اتمثم مدوّرة وكمّي ضيق وليست هذه حلية اهل القرآن »[1] .

ولم نقف الا مرة واحدة على وزن لكم في ما عدا طوله وعرضه . « حدث ابو الحسن بن حباب صاحب ابن الكرنبي قال اوصى ابن الكرنبي برقعته فوزنتُ فردكمّ من اكمامها فاذا فيه احد عشر رطلًا قال جعفر الخلدي: وكانت المرقعات تسمى في ذلك الوقت الكَبل »[2] .

وغلب على بعض القضاة حب التجمل بكبر العمامة وفحش الاكمام حتى سخر بهم اهل اللهو ممن يتعاطى عمل خيال الظل فكانوا « اذا عملوا الخيال بحضرة بعض العوام وغيرهم في بعض الاوقات يخرجون في اثناء لعبهم لعبة يسمونها « بابة القاضي » فيلبسون زيّه من كبر العمامة وسعة الاكمام وطولها وطول الطيلسان فيرقصون به ويذكرون عليه فواحش كثيرة وينسبونها اليه فيكثر ضحك من هناك ويسخرون به ويكثرون النقوط عليهم بسبب ذلك»[3] .

وما زالت الاكمام تطول وتتسع حتى اصبحت كالاعدال تشتمل على كل ما شاء صاحبها حمله وستره . ومن المُلَح المرويّة في ذلك ما حكاه هبة الله ابن ابرهيم المهدي قال : حدثني عمي منصور بن المهدي انه كان عند ابي في يوم كانت عليه فيه نوبة لمحمد الامين . . . فدخلنا وكانت طريقنا على حجرة توضع فيها الملاهي فقال لي اخي : اذهب فاختر منها عودًا ترضاه وأصلحهُ غاية الاصلاح حتى لا نحتاج الى تغييره عند الضرب ففعلت وجعلته في كمي[4] . ومن أهزل ما رواه الجاحظ او تخيّله من غرائب البخلاء قول احدهم وقد عيب بكثرة مشيه وتساخ سراويله وتخرّق نعله في سبيل خمسة دراهم : « اني من لدن خروجي من منزلي الى ان اقرب من باب صاحبي قائمًا تعلي في يدي وسراويلي في كمي »[5] .

ولا نخال وصفًا اوضح وادهش في تعداد عيوب الاكمام الواسعة من قول

---

١) ارشاد الاريب لياقوت ٥ : ٣٧٨

٢) تاريخ بغداد للخطيب ١٤ : ٤١٤

٣) كتاب المدخل ١ : ١٣١

٤) الاغاني ٩ : ٥٦

٥) كتاب البخلاء ١١٧

ابن الحاج ان الرجل « اذا جمع ركبتيه وهو قاعد او اضطجع ورفع ركبتيه فانه قد تنكشف العورة ايضاً لسعة كمه قال: وهذا بيّن مشاهد مرئيّ .»[1] وانكر على بعض اهل الترف والخيلاء المبالغة ايضاً في تطويلها باضافة ذيل لها من الحرير تزييناً لها كما يفعله بعض اهل العلم قال: « فتجد كمّ احدهم له سجاف من حرير نحو شبر.»[2] ولعلهم قلدوا في ذلك زيّ النساء. واذا اعتبرنا هذا الطول والاتساع المفرطين يتضح لنا ان ابن الحاج لم يبالغ بقوله: «ان كمّ بعض من ينسب الى العلم اليوم فيه اضاعة مال لانه قد يُفصّل من ذلك الكم ثوب لغيره»[3].

وليس لدينا اقلّ وصف لازياء اكمام النساء ولعلها لم تكن تتميز عن اكمام الرجال الا ببعض الزخرفة والتزويق والتطريز وقد انكر عليهن ابن الحاج « توسيع الاكمام التي احدثنها مع قصر الكم فانها اذا وضعت يدها ظهرت اعكانها ونهودها وغير ذلك وهذا من فعل من لا خير فيه من المتبرّجات»[4] وكانت المتظرّفة منهن اذا مشت أسبلت كمها تيهاً واختيالاً. قال ابن الساعاتي في تشبيه غصن البان:

وكأنّ غصن البان في اوراقه هيفاء خاطرة بكمّ مُسبَل[5]

وهذه المشية بالكم المُرخى كانت مشية الشطّار من الغلمان، ولذلك قال مروان الصغير في قصيدة له انشدها المتوكل على الله العباسي:

بيضاء خالط وجهها ورد فكيف لنا بشمّ
تمشي كما يمشي الغلام وكمّها مُرخىً ككمّه[6]

ولابي نواس في بعض المُرد من اهل الشطارة:

وكيف اخشاك يا من يصدّ صدّا ويهجر
قد مُسبلٌ كمّه مهدّدا لي بخنجر[7]

١) كتاب المدخل ١ : ١٢١
٢) كتاب المدخل ١ : ١٢٠ – ١٢١
٣) كتاب المدخل ١ : ١٠٨
٤) كتاب المدخل ١ : ٢٠٣
٥) ديوانه ٢ : ١١٠
٦) ديوان ابي نواس، رواية الاصبهاني، خزانة باريس ٦٨٣٠، ص ٢٠١
٧) ديوان ابي نواس، باريس ٦٨٣٠، ص ٢١٩ – ٢٢٠

وللوزير ابي عامر بن شهيد من شعراء الاندلس في غزله :

هبَّ من مرقده بكرًا سُبلا للكم مرخيَّ الردا[1]

وفي عكس هؤلاء الشطّار كان اللصوص يقصون من اكمامهم ليكونوا اخفّ يدًا في الطرّ والسرقة . ولما ولي عمر بن هبيرة العراق قال الفرزدق يخاطب الخليفة هشام بن عبد الملك :

أولَّيتَ العراق وساكنيه فزاريًا احذَّ يد القميص

« ويد القميص هو الكم والسارق يقصر كمه ويخففه ليكون اقدر على العمل »[2].

ولما ملك المغرب ابو يوسف يعقوب بن عبد المؤمن من الموحدين «امر ان يتميز اليهود الذين بالمغرب بلباس يختصون به دون غيرهم وذلك ثياب كحلية واكمام مفرطة السعة تصل الى قريب من اقدامهم وبدلًا من العمائم كأوتات على اشنع صورة كأنها البراديع تبلغ الى تحت آذانهم »[3].

وغني عن القول ان الاسراف في سعة الاكمام وطولها وثقلها كان يزيد كثيرًا في وزنها وهي فارغة فكيف بها وهي ملأى مفعمة فكانت من ثم بمثابة الحمل للشاة وشغلًا شاغلًا للعاملين . وربما غفل احدهم عن امساكها فتبدد ما فيها ولذلك عدّ ابن الحاج الخروج بالكم الخارق خروجًا عن السمت والوقار قال : « ولا يخفى على ذي بصيرة حالهم به كيف هو لخروجهم عن زيّ سائر الناس وتكلفهم في حمله ان تركوه مدلًى ثقل عليهم في مشيهم فتقلّ مروءة احدهم بسببه فلا يقدر على المشي الكثير بسببه ولا يقدر على تعاطي قضاء الحوائج بسببه وان رفع يده به احتاج الى حمله وفي حمله كلفة وان كان يصلي ثقل عليه في صلاته سيما اذا كان ببطانة وتركه مدلًى وان رفع يده به كان عاملًا لثقل في صلاته فهو شغل في الصلاة »[4].

ومن اغرب ما اتخذ الكمّ احيانًا للتهديد والضرب كالسوط نظرًا

١) نفح الطيب للمقري ٢ : ٢٢٣
٢) النهاية في التعريض والكناية للثعالبي ٢٢
٣) المعجب في اخبار المغرب للمراكشي ٢٢٣
٤) كتاب المدخل ١ : ١٠٩ — ١١٠

للينه وطوله وثقله. « ولما مات كثيّر عزة قال ابو جعفر محمد بن علي: افرجوا لي عن جنازة كثيّر لارفها قال فجعلنا تدفع عنها النساء وجعل يضربهن محمد بن علي بكمّيته . »[1]

ولقرب مُتناوَله من اليد كان الكم يستعمل كالمنديل لمسح الدموع وكالنقاب لتغطية الوجه وحجب النظر. ولابي الفرج احمد بن حسنيل الهمداني في غلام جلس في اخريات الناس وتنقّب بكمه :

جلستَ في اخريات الناس يا قمري بخلًا عليّ بان ادوى من النظر
فصرت من فُرج الاشخاص تلمحني كحاجب الشمس ناغى طرة الشجر
لم نقتنع بقناعي زحمةٍ ونوىً حتى نقنت بالاكمام عن بصري[2]

ولصاعد في تشبيه الوردة :

كخدراء اصرعها مبصر فغطّت باكمامها رأسها[3]

وفي تعليق على مجموع احاديث شتى من مخطوطات باريس :

لما بدت في ثياب من ملابسها خفيفة النسج لا يعيا بها النظرُ
خافت عيونًا فغطت وجهها خجلًا يكسوها وعلاها الدلّ والخفر
فخلتُ اثوابها اللاتي بها استترت غيمًا يضيء لنا من دونه القمر[4]

وربما تناول بعض الكتاب كمه لمسح ما نقط من الحبر على صحيفته . « حدّث ابو العيناء قال : كنت عند ابراهيم بن العباس وهو يكتب كتاباً فنقط من القلم نقطة مفسدة فمسحها بكمه . فتعجبت من ذلك فقال : « لا تعجب المال فرع والقلم اصل ومن هذا السواد جاءت هذه الثياب . »[5] وفي ضد هذه الاستهانة الغريبة كانت الاكمام هي التي تُقبَّل عند خدمة الرؤساء في موضع اليد او حبًا بالاتضاع للقضاة ورجال الدين . قال ابن بطوطة وقد اعطاه سلطان ما وراء النهر فروة سمّور كان طلبها منه لاجل البرد : « لما

---

١) الاغاني ٨ : ٤٢
٢) نسمة البنيسة ١ : ١٥٦
٣) ارشاد الاريب ٤ : ١٠٥
٤) مخطوط رقم ٩٨٦ عُدَّ غلطًا في الفهرست بين المخطوطات التركية .
٥) الاغاني ٩ : ٢٠ - ٢١

ذكرتها له اخذ اكمامي وجعل يقبلها بيده تواضعاً منه. »[1] ولعمارة اليمني في جفاء بعض كتاب الدواوين من الاقباط :

وما ضرّ ارباب الدواوين انهم نصارى وان لم يؤمنوا بمحمد
وهبنا نحن ان رمنا سلاماً عليهم دُفعنا عن الاكمام فضلاً عن اليد[2]

ومن هذا القبيل قول الاستاذ ابي الفرج بن هندو لبعض الرؤساء وقد انصبّت الخمر على كمّه :

انصبّت الخمر على كمّي ذلك منه كمّه خدمه
لو لم ترد خدمتي بالذي قد فعلت ما خصّصت كمه[3]

وكانت بعض اكمام الغلمان تُطرّز كاكمام النساء زخرفة وتزييناً ولصلاح الدين الصفدي في وصف مليح مطرّز الكم :

ومليح طراز كمّيه اضحى مثل خط العذار في حسن رقم
قال قلت الظباء مثلي وما عاز ظباء الفلا سوى طرز كمي[4]

ومن البديهي ان يحاول اهل الذمة تقليد المسلمين في ازيائهم ومصطلحاتهم وان يتخذوا نظيرهم الاكمام الخارقة والعمائم الهائلة خوفاً ان يتميزوا عنهم ويعرفوا فيهانوا. « وفي سنة ٨٢٢ (١٤١٩م) الزم المحتسب اليهود والنصارى بتضييق الاكمام وتصغير العمائم وبالغ في ذلك . »[5]

ولنذكر الآن بعض ما كان يحمل او يوضع في الكم مختاراً ما في تعداده فكاهة او فائدة ادبية واول ما كان يصلح الكم لامساك الدراهم قيل : « خرج طاهر بن الحسين لقتال عيسى بن ماهان فخرج وفي كمه دراهم يفرقها على الفقراء ثم سها واسبل كمه فتبدّدت فتطيّر .فقال له شاعر في ذلك :

هذا تفرّق جمعهم لا غيره وذهابه منا ذهاب الهمّ
شيء يكون الهمّ نصف حروفه لا خير في امساكه في الكمّ[6]

---

١) رحلته ١ : ٢٢٨
٢) تكملة شعر عمارة اليمني وترسلاته ، مطبعة شالون ، ٤٤١ :
٣) تتمة اليتيمة ١ : ١٣٨
٤) الحسن الصريح في مثة مليح دار الكتب المصرية رقم ١٢٠ه ادب ص ٩
٥) الثاني من ابناء الغمر للعسقلاني، باريس ١٩٠٢، ص ٩٣
٦) كتاب الاذكياء لابن الجوزي ١١٣ – ١١٤

وحدّث عمرو بن بانة قال : « كنا في دار ام جعفر جماعة من الشعراء والمغنين فخرجت جارية لها وكمها مملوء دراهم ... فنثرتها في حجر العباس ابن الاحنف »[1].

ولما جلس المتوكل على الله لإعذار ابنه المعتز « احضر الامراء والقواد والندماء فاجلسوا على مراتبهم وجعل بين صوانيهم والبساط فرجة وجاء الفراشون بزُبل قد غُشيت بأدم مملوءة دنانير ودراهم نصفين فصبّت في تلك الفُرَج حتى ارتفعت وقام الغلمان فوقها وامروا الناس عن الخليفة بالشرب وان يتنقل كل من شرب ثلث حفنات مما حملت يداه من ذلك المال فكان اذا انقل الواحد منهم ما اجتمع في كمه اخرجه الى غلمانه فدفعه اليهم وعاد الى مجلسه »[2].

ولابي الحسين الجزار في وصف حاله :

ولا تغرنك منه جرعة فصلها وهو عليها نادم
كم اعجبته نفسه فيها الى ان نقدت من كمه الدراهم[3]

وفي الاكمام كان يحمل العلماء والادباء والكتّاب والطلّاب الكتب والالواح للدرس والتقييد . ومن اغرب ما روي عن ابي دواد صاحب السنن انه كان له كم واسع وكم ضيق فقيل له في ذلك فقال : « الواسع للكتب والآخر لا يحتاج اليه. »[4] وكان الفتح بن خاقان يحضر لمجالسة المتوكل فاذا اراد القيام لحاجة اخرج كتاباً من كمه او خفّه وقرأه من في مجلس المتوكل الى ان يعود من الخلاء[5].

ولجلال الدين ابن خطيب داريا من ابيات :

يُعدّا لبُغيتي وفرجيّتي ومشيي كالخائف المُبلس
وكمّي المدول مما بهِ من كتبٍ محفوظها قد نمي[6]

---

١) الاغاني ٨ : ٣٣ – ٣٤
٢) الديارات للشابشتي ٦٥
٣) المغرب لابن سعيد ١٢٦
٤) الخامس عشر من الوافي بالوفيات للصفدي، باريس ٣٠٦٥، ص ٤٦ ؛ وتاريخ بغداد للخطيب ٩ : ٥٨
٥) تحفة ذوي الالباب للصفدي ، باريس ٥٨٢٧، ص ٨٣
٦) روض الاداب للشهاب الحجازي ، خزانة بريتيش موزيوم Add. 19489, f° 35

ولما دخل الشافعي العراق في خلافة هرون الرشيد قال: «فعند دخولي الباب تعلق بي غلام فلاطفني وقال ما اسمك فقلت محمد قال ابن من قلت ابن ادريس الشافعي فقال مطّلبي ؟ فقلت اجل فكتب ذلك في لوح كان في كمه وخلّى سبيلي»[1].

وفي الكم او الخفّ كانت تجمع ايضاً رقاع اصحاب الحوائج والمتظلمين وترفع الى الوزراء. حدّث علي بن الجنيد قال: كانت بيني وبين يحيى بن خالد مودة وأُنس وكنت اعرض عليه الرقاع في الحوائج فكثرت رقاع الناس عندي واتصل شغله فقصدته يوماً وقلت له يا سيدي قد كثرت الرقاع وامتلا خفي وكمي فاما تطولتَ بالنظر فيها واما رددتُها»[2].

ولما جُليت بوران على المأمون نثر عليها حبًّا كبارًا كان في كمه (من الدرّ) فوقع على حصير ذهب كان تحته فقال لله درّ الحسن بن هانيء حيث يقول:

كأنّ صغرى وكبرى من فواقعها حصباء درٍّ على ارض من الذهب[3]

وفي ضدّ ذلك كان المبخّرون في فتسح الخليج بحر يضعون الفحم في الاكمام للتبخير ذكر المقريزي ان عدة المبخرين في المواكب ستة ثلاثة عن اليمين وثلاثة عن الشمال وكل منهم مشدود الوسط وفي كمه فحم برسم تعجيل المدخنة والمداخن فضة.»[4]

ومن المُلح الجديرة بالحفظ انه في سنة ٤٢١ (١٠٣٠م) «جرى بين معز الدولة ثمال وبين زوجته كلام فغضبت عليه وخرجت الى المحلة بظاهر حلب فأمر ثمال ان يصاغ لها لالكة[5] من ذهب مرصعة بالجواهر فلما استوت اخذها في كمه وخرج»[6].

١) ثمرات الاوراق لابن حجة ١٧٢

٢) كتاب الوزراء والكتاب للجهشياري ٢٢٨

٣) الديارات للشابشتي ٦٧ – ٦٨

٤) الخطط ٢ : ٢٧٣ – ٢٧٤

٥) اللالكة لفظة فارسية يراد بها نوع من الاحذية ولم ترد في المعجمات وتجمع على لوالك وجاءت « لكالك » غلطاً في البيتين المقولين في ابن المرحّل المعروف بابن الوكيل وتشبيهه بسوق اللبادين بدمشق :

وداد ابن الوكيل له شبيه بلبّادين جلق في المسالك
فاولـه حـليٌّ ثم طيب وآخره زجاج مع لكالك

(فوات الوفيات للكتبي ٢ : ٢١٧).

٦) زبدة الحلب لابن العديم، باريس ١٦٦٦، ص ٦٢

وكان المشعوذون يعولون كثيراً على اكمامهم لستر حيلهم وتمويه مخارقهم « ذكر هلال بن المحسن ان رجلاً كان يقال له ابو العجب لم يُرَ مثله في ما كان يعمل من الشعبذة دخل يوما الى دار المقتدر بالله فرأى خادماً من خواصه يبكي على بلبل مات له فقال له : ما عليك ايها الاستاذ اذا احييته ؟ فقال ما تريد فاخذ البلبل الميت فادخله كمه وادخل رأسه واخرج بعد ساعة بلبلاً حياً فماجت الدار وعجب الحاضرون فاستدعاه علي بن عيسى (الوزير) وقال: والله ان لم تصدقني عن حقيقة الامر لاضربنّ عنقك فقال: اني شاهدت الخادم يبكي على بلبله فطمعت بما آخذه منه فمضيت الى السوق وابتعت بلبلاً وخبأته في كمي وعدت الى الخادم فقلت ما قلت واخذت البلبل الميت وادخلت رأسه في كمي واكلته واخرجت الحي فلم يشك انهُ بلبله وهذا رأس الميت »[1].

ومن عوائدهم خاصة بمصر اذا حضروا الولائم والاسمطة في المواسم ان يحشوا في اكمامهم كل ما ينتهب من المأكولات بين جامد وسائل ورطب وجافّ من فضلات البساط وقد وصف المقريزي بساط العيد فقال : « وقُدمت جفان القطائف على الرسم مع الحلوى فجروا على عادتهم وملأوا اكمامهم »[2] ولما ذكر ركوب الخليفة في اول شهر رمضان قال : « وأُحضرت جفان القطائف وجرار الجلّاب فاكلوا وملأوا اكمامهم . »[3]

ومن اغرب ما عيب حمله في الكم المفتاح « قال ابو نصر بن المرزبان: اربع تذهب بالمروّة . . . حمل المفتاح في الكم »[4]. وقد خفي علينا سبب هذا العيب.

واكثر ما كانت تتخذ اكمام النساء في الخلافة العباسية لحفظ الدراهم والطيب والريحان والزهر. وفي الاغاني : « كانت مُتيّم يعجبها البنفسج جداً فكان عندها آثر من كل ريحان وطيب حتى انها من شدة اعجابها لا يكاد يخلو من كمها الريحان ولا زاه الا كما قُطف في البستان . »[5]

وقد فاتنا كثير من اخبار الاكمام واوصافها في العراق من ازياء النساء بخلاف

---

١) كتاب الاذكياء لابن الجوزي ١٠٦

٢و٣) الخطط ٢ : ٢٢٤ – ٢٢٥ و٢٨٧

٤) برد الاكباد في الاعداد للثعالبي ، دار الكتب المصرية ، رقم ٣١٧ ادب

٥) الاغاني ٧ : ٢٦ – ٢٧

ازيائهن في مصر والشام أشير اليها غير مرة في تضاعيف المجموعات الادبية والمصنفات التاريخية ولكن شرحها يقتضي مقالة خاصة تتناول كل ملابسهن وضروب زينتهن وتبرجهن، وفيها كل غريب وعجيب . فحسبنا هنا ان لا نتجاوز التنبيه على سعة اكمامهن وطولها وقد افرطن فيها احياناً غاية الافراط حتى اضطر النواب والامراء الى منعها بالقوة والعنف . وكن يقلدن فيها غالباً الخوندات اي نساء الملوك والسلاطين وجواريهن . وفي سنة ٧٥٠ (١٣٤٩ م) احدث الخواتين نساء السلطان « قصاناً طوالاً تسحب اذيالها على الارض باكمام سعة الكم منها ثلاثة اذرع فاذا ارخته غطى رجلها . . . وتشبه نساء القاهرة بهن في ذلك حتى لم تبق امرأة الا وقميصها كذلك فقام الوزير بابطالها وطلب والي القاهرة ورسم له بقطع اكمام النساء واخذ ما عليهن . . . وبعث اعوانه الى بيوت ارباب الملاهي فهجموا عليهن واخذوا ما عندهن من ذلك وكبس مناشر الغسالين ودكاكين البابية واخذ ما فيها من قصان النساء وقطعها ووكل بها لكه بالشوارع والطرقات فقطعوا اكمام النساء . . . »[1]

« وفي سنة ٧٧٠ (١٣٦٨ م) نودي بدمشق ان لا تلبس النساء الاكمام الطوال العراض ولا البز الحرير ولا سائر الثياب الثمينة ولا الاقبية القصار عن كتاب ورد بذلك من مصر »[2].

« وفي سنة ٧٩٣ (١٣٩١ م) نودي بالقاهرة ان لا تلبس امرأة قميصاً واسعاً ولا يزيد على تفصيل القميص من اربعة عشر ذراعاً وكان النساء بالغن في سعة القمصان حتى كان يفصل القميص الواحد من اثنين وتسعين ذراعاً من البندقي الذي عرضه ثلاثة اذرع ونصف فتكون مساحة القميص زيادة على ثلثمائة وعشرين ذراعاً وفحش هذا حتى تشبه عوام النساء في اللبس بنساء الملوك والاعيان . »[3] « وفي ثاني ذي القعدة ارسل الامير كشبغا جماعة من المماليك والوشاقية فداروا الاسواق والقياسير والطرقات بالقاهرة وظواهرها فقطعوا اكمام النساء الواسعة بالسكاكين وحصل للنساء خوف عظيم لانهم كانوا

١) السلوك للمقريزي المجلد الاول، باريس ١٧٣٦ ، ص ٦٠١ – ٦٠٢

٢) ذيل ابن قاضي شهبة، باريس ٥٩٨ ، ص ١٢٥

٣) السلوك المجلد الثاني ١٧٣٧ ، ص ٢٢٢

يأتون المرأة على غفلة ويمسكونها حتى يقطعوا كمها فامتنع النساء من لبس القمصان بالاكمام الواسعة وتفصيلها ولو تم ذلك لكان خيراً عظيماً ولكن عاد النساء الى ذلك بعد حضور السلطان من الشام »[1].

ومن هذه المقتطفات يستدل على ما لتاريخ ازياء النساء من الجدة والطرافة والغرابة. ومن سوء حظ الادب والفنون ان لا يكون احد من المتقدمين تفطن لما في كتابته وجمعه من الخطر والشأن والامتاع في تاريخ الحضارة الاسلامية في العراق ومصر والشام.

ويؤخذ من اقوال بعض الباحثين ان الاكمام الطويلة الواسعة كانت معروفة في الشرق وفي مملكة اشور وبابل ، ثم شاعت عند الروم البيزنطيين فكان القياصرة يلبسونها مسبلة تتدلى الى الاقدام وكذلك نساؤهم كما تشهد بذلك بعض الصور المحفوظة وآخر من رُئي منهم مصوراً بهذا الزي الكسيوس الثالث قيصر طرابزندة (١٣٥٠ - ١٣٩٠ م) وكان لبعض رجال الدولة والاراخنة حق بلبس هذه الاكمام على شرط ان تبقى مرفوعة منوطة بالزنار في الظهر[2]. ونُقل عن اهل الصين انه كان من هيئاتهم في اللباس توسيع الاكمام وتطويل الذيول والمناطق[3].

ولا سبيل لنا اليوم لمعرفة الزمن الذي بطلت به الاكمام الواسعة العريضة التي كانت كالجوالق والاكياس وقام مقامها في الحب والستر الجيوب المعروفة اليوم التي تُشق في الاقبية والملابس. وقد اغفلت المعجمات التنبيه على المعنى المولّد من الجيب واقتصرت على معناه القديم اي الطوق المحيط بالعنق ويقال له ايضاً الجِرْبان ويظهر ان اللفظة بمعناها المُحدَث كانت معروفة في زمن العباسيين ، وان لم يشر اليها احد من اللغويين والمنشئين ويدل على ذلك قول علية اخت الرشيد.

خبأتُ في شعري اسم الذي اردته كالحب في الجيب[4]

ولبديع الزمان الهمذاني في احدى رسائله : « قليل في الجيب خير من كثير في الغيب »[5].

١) ذيل ابن قاضي شهبة، باريس ١٥٩٩، ص ٦٩

٢) J. Ebersolt, *Les Art somptuaires de Byzance*. Paris, 1923 , p.122-124

٣) مباهج الفكر ومناهج العبر للوطواط ، دار الكتب المصرية رقم ٣٥٩ العلوم الطبيعية ، ج ٢ ص ٢٨٦

٤) الاغاني ٩ : ٨٥

٥) رسائله، طبعة الاستانة، ٤٣